نظرة على الوضع الديمغرافي والاجتماعي في المغرب أثناء الاحتلال الروماني (*)

محمد البشير شنيتي

عرف المغرب في العهد الروماني ظاهرة ديمغرافية متميزة ، كان أساسها تواجد بشري متنوع الأصول والاعراق وبنية اجتماعية معقدة التركيب وأوضاع قانونية ومدنية متباينة.

عناصر السكان :

يمكن أن نرجع عناصر السكان الذين ضمتهم خريطة المغرب البشرية في العهد الروماني الى مجموعتين كبيرتين :

– مجموعة الأهالي.

– ومجموعة الوافدين.

أ – الأهالي :

نعني بالأهالي مجموع السكان الذين تواجدوا بالمغرب منذ فجر التاريخ. وكانوا قبائل متنوعة وشعوبا كثيرة العدد مختلفة الانماط. فيهم البدو والرعاة والحضر والزراع. وجاء ذكرهم في المصادر اليونانية القديمة (هيرودوت) مصنفين[1] نمطيا الى صنفين كبيرين تبعا لطبيعة الاقليم الذي كانوا يتواجدون فيه. وورد في المعطيات الأثرية ما

* بحث قدم في المؤتمر الدولي الثاني لحضارة وتاريخ المغرب، وهران، نوفمبر 1982.

يشير الى صحة الاخباريين اليونان بخصوص الليبيين القدامى.

وأهم المجموعات البشرية التي كان ينتمي اليها الأهالي والتي ورد ذكرها في النصوص القديمة وفي النقوش الأثرية ما يلي :

الموريون في الغرب، والنوميديون في الشرق، والجيتوليون في الداخل بمحاذاة الموريين والنوميديين، ثم الفاروسيون في الجنوب الغربي والغرامنتيون في الجنوب الشرقي.

وقد تضمنت كل مجموعة كبرى قبائل عتيدة اشتهر بعضها في تاريخ المقاومة ضد الاستعمار الروماني كقبائل البقواط[2] والبوار[3] المنتمية الى مجموعة الموريين، وقبائل الموزولامي[4] الضاربة في بلاد النوميديين والجيتوليين[5]، ثم القبائل التي عرفت في النصوص اللاتينية بقبائل الحلف الخماسي[6] الضاربة بمنطقة الصومام.

كان المزارعون من الأهالي يعيشون في قرى أو مدن تركز معظمها بالمناطق الداخلية مثل سيكا (الكاف) وزاما وتبسة ودقة وكيرتا (قسنطينة) ووليلي (قصر فرعون) وسيغا. كما أقام الأهالي بمراكز عمران ساحلية، وخاصة تلك التي أقامها الفينيقيون منذ حلولهم بشواطئ المغرب القديم.

ورغم أن النصوص القديمة تشير الى غلبة الطابع الرعوي وظاهر الترحال على الزراعة والاستقرار الا أن الأمراء والملوك المغاربة كانوا يشجعون الاستقرار ويرغبون الناس فيه ويقيمون لأنفسهم وذويهم مراكز عمرانية (قصور منيعة أو ضيعات) تجمع حولها الناس فاشتهر بعضها بالمدن الملكية (زاماريجيا، بولاريجيا، هيبوريجيوس، الخ...) وأمّا الأجانب من غير الفينيقيين كالأغريق خاصة الذين حفلت بهم مدينة كيرتا (قسنطينة) وتمكن بعض الملوك، وخاصة منهم مسنيسا، من ارساء توازن ديمغرافي في مملكته قوامه مستقرون زراع ورعاة مترحلون، كل يمارس حياته في اقليم طبيعي يلائم نمطه في الحياة، وهو ما يدل عنه الازدهار الزراعي ووفرة الانتاج الحيواني بالاضافة الى الاستقرار السياسي الذي نعمت به مملكة نوميديا لعدة أجيال، فتوفر لحكامها توازن سياسي في علاقتهم الخارجية مع أمم حوض المتوسط (أغريق – رومان).

غير أن الأمر ما لبث ان أخذ في التغير ابتداء من الاحتلال الروماني الذي

اتصف بكونه احتلالا استيطانيا أوجد ظروفا اضطرارية لتغيير جوهري في خريطة المغرب البشرية خاصة منها الأقاليم الزراعية المحاذية للساحل (أي التل بمفهومه الواسع)، فترتب عن هذا التغير توافد عناصر بشرية جديدة تركزت بمناطق الثقل الاقتصادي مما أدى الى ارتفاع في الكثافة الديمغرافية وحدوث زحزحة بشرية في أوساط الأهالي نحو الداخل (أي طرد وانتشار).

ب ـ الوافدون :

أقصد بالوافدين تلك العناصر البشرية التي وفدت الى المغرب أثناء الاحتلال الروماني بصرف النظر عن أصولها وأعراقها والكيفية التي انتقلت بها الى هاته الديار أو تاريخ حلولها بها.

ولقد حلت بالمغرب عناصر أجنبية من غير الفنيقيين منذ زمن موغل في القدم، ومنهم الاغريق الذين كانوا على صلة وطيدة بالبلاط الملكي النوميدي [7] بكيرتا مثلا، لكن أبواب الهجرة الى شمال افريقيا لم تتسع أمام الوافدين من مختلف بلدان حوض المتوسط سوى في العهد الروماني الذي أوجد لهم فرص الانتقال الى هذه البلاد ووسائل العيش الأفضل فيها، خاصة في العهد الامبراطوري، حيث أصبح البحر المتوسط همزة وصل ومجال عبور بين بلدان حوضه [8].

ومن العناصر الوافدة على المغرب عنصر الايطاليين الذين بدأوا يتقاطرون على مدنه الكبرى منذ سقوط قرطاجة عام 146 ق.م. في صورة تجار ورجال أعمال وجنود واداريين. واقتصرت اقامتهم بالمدن الهامة في بادئ الأمر، غير أنه ابتداء من سنة 122 ق.م. أخذ الوافدون الايطاليون يتغلغلون في الداخل كمزارعين.

وبعد انتصار قيصر وسقوط مملكة نوميديا عام 46 ق.م. انفتحت أبواب الاستيطان على مصراعيها أمام الراغبين في الحصول على أرض زراعية والانتظام في مستعمرات فلاحية [9]، ثم اشتدت الهجرة الايطالية نحو افريقيا في العهد الامبراطوري الأول خاصة أثناء اشتداد الأزمات الاقتصادية والاجتماعية بايطاليا [10]، وبعد أن تأكدت رغبة الاباطرة في الاستيلاء على أراضي الشعوب المهزومة والتحكم الجيد في مواردها.

وجذبت بلاد المغرب اليها عناصر بشرية متوسطية أخرى من غير الايطاليين،

منهم الايبريون والغاليون والداسيون والاغريق والسوريون. وقد كثر العنصر الاغريقي في صفوف العبيد (عبيد المنازل والخدمات الحضرية) وبرز العنصر السوري والشرقي بصفة عامة في ميدان التجارة والجندية (خاصة جنود الحدود الجنوبية المعروفون بالهجانة) [11].

وتركز الوافدون بمراكز العمران المدني والريفي مشكلين مجتمعا خليطا من الأجناس سادته سلطة روما وقانونها وحضارتها. وكانت نسبة الأهالي فيه متفاوتة العدد والأهمية بين حاضره وأخرى تبعا لأهمية الطبقة الارستقراطية المحلية المندمجة في ذلك المجتمع، في حين ظلت الأرياف والبوادي محتفظة بتفوق السكان الأهالي عن الوافدين عدديا.

تكاثر السكان وتوزعهم :

ربما كان ترتوليانوس الأديب المسيحي الذي عاش خلال القرن الثالث، صادقا عندما عبر عن كثافة السكان في عصره بقوله: «يكفي أن نلقي نظرة على ما حولنا لنعلم بأن العالم تتزايد ثروته ويكثر سكانه يوما بعد يوم... في كل مكان بيوت وفي كل ناحية شعب وفي كل جهة مدينة انها الحياة في كل مكان. كل هذا دليل على ان الجنس البشري قد تزايد كثيرا» [12].

وتوحي لنا عبارات ترتوليانوس التالية بأن النمو الديمغرافي كان ذا طابع استعماري استيطاني: «أبعدت المزارع الغنية الصحراء القاحلة وقهرت الحقول الغابات وأبعدت القطعان السباع. لقد تم زرع الرمال وتجفيف المستنقعات، وتسلقت الاشجار الصخور....» [13]. والواقع أن النمو الديمغرافي الذي أشار اليه ترتوليانوس كان قائما على توسيع الخريطة الزراعية واستصلاح الأرض وتنويع المزروعات وتشجيع اليد العاملة الريفية والحضرية على الانتقال نحو الداخل. وهذا ما تؤكده لنا الخريطة الأثرية التي تبرز بوضوح كثافة العمران المدني والريفي العائد الى ذلك العصر.

أ ـ تقديرات الكثافة :

الحقيقة أنه ليس لدينا احصاء دقيق لعدد السكان الذين تعايشوا في المغرب خلال زمن ما من العهد الروماني، ذلك أن كل التقديرات المتعلقة بعدد السكان

وأنشطتهم لا تستند الى معلومات تاريخية دقيقة ومؤكدة. فقد اعتمد فيها أصحابها على النصوص الأدبية وجرد الأسماء الأثرية والمرافق العامة للمدن. كخزانات المياه المموّنة للمدينة وسعة المسارح والحمامات والكنائس. أو الاحصاءات الجزئية المتعلقة بالموظفين الاداريين أو الدينيين[14].

وقد اختلف المؤرخون في تقدير العدد الاجمالي لسكان المغرب آنذاك. اذ بينما يرى بلوك أنهم بلغوا 6 ملايين نسمة في فجر الامبراطورية[15]. يرى ستين أن شمال افريقيا عرف نموا ديمغرافيا ملحوظا خلال القرن الثالث الميلادي. وان مدنه كانت غاصة بالسكان[16]. أما كورتوا فقد تحفظ كثيرا واقترح حوالي 4 ملايين نسمة يكونون قد تعايشوا في افريقيا الرومانية خلال العهد الامبراطوري الأول[17]. وهو العهد الذي لغت فيه الكثافة البشرية أقصاها في نظر المؤرخين. ويضيف بأن هذا العدد قد هبط الى حوالي ثلاثة ملايين نسمة أثناء العهد الامبراطو ري المتأخر (284 _ 430 م.) وذهب كورتوا من جهة أخرى الى القول بأن نسبة الحضريين قد بلغت 60 ٪ . مسقطا من الحساب عالم البادية الذي كان غاصا بمجموع القبائل الرعوية . وكذلك الأرياف الفالتة من سلطة الادارة الرومانية . وهذا النوع من التقدير ينم عن نظرة ضيقة لخريطة السكان بالمغرب . لكن لا نستغرب الأمر اذا تذكرنا ان معظم البحوث التاريخية المتعلقة بالفترة الرومانية ببلاد المغرب قد اسقطت أخبار الأهالي من الاعتبار سواء بدعوى عدم توفر المصادر حولهم أو لكونهم عاشوا خارج اطار التاريخ، وهو ما يعبر عن نظرة ضيقة للتاريخ فضلا عن كونه خطأ منهجيا واضحا.

ويرى بيكار من جهة أخرى أن سكان شمال افريقيا الرومانية قد بلغوا ستة ملايين ونصف مليون نسمة، لكنه وزع هذا العدد على الولايات كالتالي :

2.5 منيون بالولاية البروقنصلية.

0.5 مليون بولاية طرابلس.

3 مليون بنوميديا.

0,5 مليون بولايتي موريطانيسا معا[18].

وبهذا يكون سكان ولايتي موريطانيا بشطريها القيصرية والطنجية مساويا لعدد سكان ولاية طرابلس وحدها، وهو أمر مثير للغرابة حتى ولو كان هذا التقدير متعلقا

بالسكان التابعين للدارة الرومانية دون غيرهم. ذلك أنه على الرغم من أهمية الشريط الساحلي الطرابلسي من حيث الازدهار الاقتصادي والعمران الذي كان عليه أيام الرومان، فانه لا يمكن أن يعادل سكان نصف الشمال الافريقي عامة الذي كانت تضمه الولايتان القيصرية والطنجية، ثم أن مدن هاتين الولايتين كانت كثيرة وغاصة بالسكان الى حد أن بعضها كقيصرية مثلا[19] ضاهت قرطاجة أهمية.

ب ـ التكاثر عن طريق الاسرة (الانجاب) :

اعتمدت في دراسة هذا الموضوع على تحليل احصائيات شواهد القبور والانصاب المختلفة التي قام بها ج.م. لاسير، غير أنه ينبغي أن نلاحظ ان النتائج المتوصل اليها تقريبية وجزئية لكنها ذات أهمية كبرى في موضوع الديمغرافية التاريخية لاعتمادها على طرق منهجية يقرها البحث العلمي الحديث.

يستخلص من المعلومات الاحصائية المشار اليها آنفا ان سن الزواج بالنسبة للفتاة كان مبكرا لدى الأهالي أو الوافدين (11_13 سنة)[20]، وهو ما يطيل في فترة الانجاب لدى المرأة، غير أن ظاهرة العزوبة أو العنس كانت متفشية لدى الفتيات بالمجتمعات الحضرية، حيث تم تمييز 21 فتاة متزوجة فقط من بين 136 فتاة تجاوزت سن الزواج بقائمة جمعت من نقوش دوقة مثلا، و45 زوجة من بين 227 امرأة تم احصاؤهن بمدينة الكاف[21] لكن نسبة العزوبة في أوساط الفتيات تبدأ في الانخفاض كلما اتجهنا نحو المناطق الجبلية وفي أوساط الأهالي خاصة، ففي منطقة الأوراس أمكن ملاحظة 11 زوجة من بين 13 امرأة وبالسهول العليا الموريطانية 20 من بين 22 خارج المدن بينما بلغت في قيصرية 18 من 40، وبقرطاجة 53 من 101[22].

وتبين أيضا من خلال الاحصائيات الجنائزية أن نسبة الأطفال الاحياء كانت في المتوسط بين 2 و3 للعائلة الواحدة بالمدن الداخلية وأقاليمها كتبسة وسطيف وحيدرة ودوقة وسيغوس وجميلة وقالمة ووليلي، لكنها أقل انخفاضا بالمدن الساحلية الكبرى مثل قرطاجة (1_2).

أما في أوساط الأهالي فيظهر أنها كانت مرتفعة.، من ذلك أن وثيقة بنازا (سيدي علي بوجنون) تنص على وجود عائلة من الأهالي بلغ عدد أطفالها أربعة،

وهي العائلة التي طلبت حق المواطنة الرومانية من الامبراطور[24].

ولا ندري ان كانت الظروف الصحية والمعاشية[25] هي العوامل الرئيسية في صغر حجم العائلة ام ان الامتناع عن الانجاب الممارس من طرف الزوجات كان سببا هاما في ذلك، حيث أنه ورد في النصوص أن النسوة كن يمارسن أساليب مختلفة، منها السحر وتناول مستحضرات الأعشاب وغيرها من العقاقير التي كانت تؤثر على صحة المرأة وتؤدي أحيانا الى عقمها التام، ولقد كان القانون حياديا ازاء هذه الظاهرة، حيث كانت المرأة حرة في الاحتفاظ بحملها أو اسقاطه، كما كان الاب حرا كذلك في أن يحتفظ بابنه أو لا يحتفظ به[26]. وقد نبه رجال الدين المسيحيين أمثال ترتوليانوس الى خطورة ظاهرة الاجهاض في المجتمع الانساني آنذاك ونددوا بها[27]

غير أننا نلاحظ العكس في أوساط الأهالي، من ذلك أن النسوة كن يمقتن العقم ويستعجلن الانجاب ويحبذن الاكثار من الأطفال، بدليل الوثائق التذكارية التي وضعتها النسوة في أضرحة الالهة ابتغاء مزيد من الأطفال[28]. فضلا عن أن النصوص الأدبية والأثرية تشير الى أن القبائل الليبية كانت كثيرة العدد، رغم الحروب التي كانت تفني الكثير من رجالها، وأن بعض تلك القبائل كان في حجم شعب كبير[29].

ويجدر أن نشير الى أن بعض العائلات الفقيرة من مجتمع المدينة فيما يبدو، كانت تتخلى عن أطفالها أو تبيعهم صغارا عند عجزها عن اعالتهم، وهو ما تؤكده ظاهرة الأطفال المشردين الذين كان يعهد بتنشئتهم الى النسوة العواقر أو العتيقات ثم يباعون عبيدا[30].

أما من حيث التركيب الجنسي للسكان فيظهر من خلال النقوش المتعلقة بهذا الموضوع ان نسبة الذكور كانت أعلى من الأناث في مجتمع الوافدين، خاصة في سن ما بعد 20، حيث أظهرت الاحصائيات ان النسبة كانت 257 مقابل 100 من الأناث في الاعمار ما بين 20ـ29 سنة. وبلغت 175 مقابل 100 فيما بعد سن الخمسين[31]. وبينت الدراسة من جهة أخرى أن هذه الحالة من عدم التوازن بين الجنسين قد تواصلت لمدة ثلاثة قرون الأولى من الوجود الروماني بالمغرب حيث لم

ينخفض معدل تفوق نسبة الذكور عن الأناث خلال تلك المدة عن 146 مقابل 100[32].

ويبدو أنه لا يوجد ما يفسر هذا الخلل الجنسي الذي عرفه ذلك المجتمع سوى التوافد الذي كان من الشباب المذكور سواء حلوا بالمغرب في صورة مدنيين أو عسكريين، وان كان هذا التفسير صائبا فانه يصح القول بأن المجتمع الاستعماري كان رجالي الطابع لأن احدى النسب به تدل على ما يزيد عن 5 رجال لامرأتين (257 ٪). ويظهر ان هذا الخلل قد أوجد له الوافدون حلا باتخاذهم زوجات من الأهالي والمطالبة لابنائهم منهن بحقوق مدنية[33].

وهكذا فان الاسرة الطبيعية بمجتمع افريقيا الرومانية لم تكن المنبع الوحيد الذي كان يمد النمو الديمغرافي بعناصر جديدة بل كان هنالك التوافد الخارجي الذي ظل ينمي عدد أفراد هذا المجتمع ويعزز جانبه لعدة أجيال.

حركة السكان :

لقد انعكست آثار التوافد الأجنبي على حركة السكان وتوزيعهم بالداخل في صورة عوامل دفع حثت الهجرة الداخلية على الاشتداد سواء منها تلك الحركة التي ظهرت في شكل نزوح، وكان أصحابها من الأهالي الأكثر تضررا بحركة المد الاستيطاني، وهم الريفيون وأشباه الرحل، أو حركة الانتشار الداخلي التي قام بها الوافدون من مزارعين وتجار ممن كانوا يسعون للاستيلاء على مزيد من الأرض الزراعية والتحكم في الموارد الاقتصادية، وقد عرف أولئك الراغبون في الاستئثار بهذا النوع من مصادر الثروة بأنهم كانوا يتتبعون خطى جيش الاحتلال، قصد حيازة الأرض التي كان يفتكها من أصحابها الأهالي الثائرين أو المقاومين. وهي عملية اعتبرها بعض الباحثين المعجبين بفعل روما من الأعمال المنهجية الهامة التي تنسب الى الاحتلال الروماني[34].

وأدت هذه الحركة الديمغرافية الى تغيير في التركز عبر الخريطة السكانية، حيث انتقلت قبائل كثيرة من مضاربها لتستقر بمواطن أخرى، كما تحول بعضها الى حياة التنقل الموسمي. تبعا للظروف، وأجبر البعض الآخر على الاقامة برقعة جغرافية محددة. كما وجد بعض الأهالي في التغيرات الاقتصادية والعمرانية الناجمة عن

التوسع الزراعي فرصا للنزوح الى مراكز العمران حيث يتوفر العمل والعيش خاصة تلك الأقاليم التي تناولها الاستصلاح وانتشرت بها حقول الزيتون ومعاصر الزيت بعد ما كانت مراعي تجوبها القطعان.

ثم أن الهجرة الداخلية شملت عناصر من الوافدين أيضا. حيث عمل توسيع الخريطة الزراعية على جذب مئات المزارعين الفقراء من المدن والضياع للاستفادة مما خوله لهم القانون الخاص باحياء الأرض الموات (قوانين مانيكيا وهدريانوس). ودلت النقوش اللاتينية المستخرجة من بعض مراكز العمران التي أوجدها الاستصلاح على أن نسبة عالية من سكانها كانوا احفادا لمزارعين قدامى عرفوا بمركز أقدم.

فئات السكان وأوضاعهم القانونية والاجتماعية
بناء على الهرم القانوني والاجتماعي

يعتبر القانون الروماني السكان المتواجدين ضمن الخريطة السياسية الامبراطورية أصنافا شتى وفئات متفاوتة الحقوق والواجبات المدنية، وللاختصار والتبسيط اقتصر على ذكر الأصناف والفئات الأكثر بروزا ومنها:

الصنف الأول الذي كان يضم مجموعة المتمتعين بالمواطنة الرومانية سواء كان انتفاعهم بها عن طريق النسب كسليلي روما أو عن طريق الترفيعات التي كان يمنحها الأباطرة للأفراد والجماعات المنتمية لطائفة الأجانب Peregrini الأحرار.

غير أن صنف المواطنين Civis هذا كان يضم طبقات اجتماعية متباينة الوضع بتباين أوضاعها الاقتصادية والمهنية، ويمكن أن نميز منها في المدن طبقة البرجوازية الحضرية Municipe وطبقة العوام المقيمين Incolae وكانت تميز بين الطبقتين نوعية الوظائف المسندة الى أفراد كل طبقة، وكذلك قانون الجزاء والعقوبة، فافراد الطبقة البرجوازية التي تلقب أيضا بطبقة الاشراف Honestiores [35] كانوا يحتكرون المناصب الشرفية والوظائف السامية والمدنية كالجباية والمحاماة والسفارة والبريد، فضلا عن كونهم يشكلون مجلس البلدة Curie [36] بينما كان أعضاء الطبقة الدنيا

ويدعون أيضا بالوضعاء Homeliores مبعدين عن الأجواء السياسية والوظائف السامية قانونيا، وعليهم تأدية الأعمال المجانية المفروضة عليهم في صورة سخرة دنيا Munera Sordida [37]، وكانت عقوبة هؤلاء ممكنة بالزج بهم الى الحيوانات المفترسة ليتلذذ بمشاهدهم الدامية جمهور المتفرجين أو تصليبهم أو حرقهم أحياء أو الحكم عليهم بالأشغال الشاقة في المناجم أو استرقاقهم [38]. بينما لم تتجاوز العقوبة المترتبة عن جرم مماثل ارتكب من طرف أحد أفراد فئة الاشراف مصادرة أملاكه أو تجريده من المواطنة [39].

ويوضح لنا سجل بلدة تيمقاد الهرم الاجتماعي لأعضاء الطبقة الأولى بالمدينة، حيث تتصدر قائمة السجل العشرة الأوائل Honarati من أعيان المدينة Clarissimes نصفهم يلقبون بالسادة Patrons تم اختيارهم من طرف المجلس البلدي بناء على ثروتهم ومكانتهم المرموقة في المجتمع لكونهم ساهموا في تغطية نفقات عمومية وتمويل مشاريع بالبلدة، كما أغدقوا من أموالهم عن الصالح العام [40]. وقد كرست تعليمات الامبراطورية ذلك حيث جاء في احداها: «يجب أن يقوم الاستحقاق على أساس أن المترشحين لعضوية المجلس البلدي يكون الواحد منهم قد أدى أفضل الأعمال الشرفية» [41]. وكان لهذه الفئة الشرفية السخية مكانة خاصة لدى السلطة المحلية وجمهور البلدة حيث كانت الساحات العمومية furoms تزين بتماثيلهم رمزا للعرفان بجميلهم [42]، كما خلدت أسماؤهم بلوحات تذكارية تعلو واجهات المباني ذات النفع العمومي التي أنجزوها كالأسواق وما اليها [43].

وتأتي في الرتبة الثانية فئة الأحرار المرفعين Perfectissmus ، المنحدرة من عائلات الفرسان والضباط ، ثم فئة رجال الدين المشرفة على الطقوس الدينية الرسمية والأضاحي والألغاب اما طبقة الموظفين فتأتي في الدرجة الرابعة من الهرم الذي مثله سجل تيمقاد، وتضم الحكام Decdriohs ، ومنهم الوصي Curator السنوي للامبراطور ، والقاضيان البلديان Duoviri ورئيس الشرطة Eadit وبقية المسؤولين على الوظائف والمصالح البلدية.

واذا كانت هذه صورة عن مجتمع المدينة فان مجتمع الريف الخليط كانت تتصدره فئة الملاك أو مسيري أعمالهم ومسيري الأعمال بضياع الامبراطور، ثم طبقة

الموظفين والمزارعين الأحرار وكان بالمناطق المحيطة بالمدينة أو الواقعة في دائرة مسؤوليتها الادارية عدد كبير من الفلاحين الاجراء أو مستأجري الأرض والملاك الصغار، وكانت ضواحي المدن الكبرى وأقاليمها الخصبة ذات كثافة بشرية ريفية عالية خلدتها آثار القرى والأحياء الفقيرة التي كانت منتشرة بتلك الضواحي [44]

وفضلا عن المزارعين الأحرار والأجزاء الدائمين وعبيد الأرض كان هنالك الاجراء المؤقتون أو الموسميون Ihquilini الذين كانوا ينزلون بالقرب من الأملاك الكبرى أثناء مواسم العمل (قطف الزيتون أو الحصاد) ثم يغادرونها بعد انقضاء فترة التشغيل، وكان هذا الصنف من السكان الأصليين (الأهالي) الذين أرغمتهم حركة الاستيطان على انتهاج اسلوب التحرك والانتجاع ومنهم كان الحصدة الذين ورد ذكرهم في المصادر الأثرية الافريقية.

وكانت معيشة هذا الصنف من السكان بدائية متواضعة فيها استمرارية ملحوظة لأسلوب ما قبل التاريخ وفجره، مساكنهم أكواخ حقيرة تدعى مباليا Mapalia أوكازي Casis ، ولباسهم من جلود الحيوانات وغذاؤهم من أبخس أنواع المنتوجات الزراعية ومنها الشعير وجذور النباتات والألبان والحلزون[45].

ولم يكن الشرع الروماني يعترف بالشخصية القانونية لهذه الفئة من الناس حيث لا تؤهلهم أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية لادراجهم في صنف من الأصناف المدنية المعروفة آنذاك (مواطنون رومان، لاتين، ايطاليون... الخ.) فكان القانون ينعتهم بالأجانب Peregrini أي الذين لا يعترف لهم بحق الملكية ولا الاحتكام الى الشرع الروماني ولا رفع التظلمات ضد أي كان من المتمتعين بالشخصية القانونية الرومانية.

ومن الناحية العددية كان هذا الصنف من السكان يمثلون نسبة عالية من سكان افريقيا الرومانية الذين ساهموا في ازدهارها وتوفير أسباب الرخاء لمجتمع المدينة فيها، لكنهم ظلوا قليلي التأثر بحضارة روما مثلما كانوا محرومين من امتيازات قانونها.

وينبغي الا نهمل ذكر صنف آخر من سكان افريقيا الرومانية كاانت نسبته العددية معتبرة وأهميته الوظيفية كبيرة في مجتمع ذلك الوقت، ونعني به صنف العبيد، ذلك أن حروب الرومان المظفرة قد درت عليهم غنائم بشرية هائلة كان من بينها

القرطاجيون، ساهمت في انخفاض سعر العبيد واستخدام الرق على نطاق واسع في مختلف الخدمات، سواء منها ذات الطابع الحضري أو الريفي (أشغال منزلية وأعمال الزراعة، أي الحرف الذهنية والعضلية).

وينبغي أن نذكر هنا أنه على الرغم من أن ظاهرة العبودية كانت حالة عامة في الدول والمجتمعات القديمة الا أن ضخامة اعداد العبيد في روما وولاياتها واستخدام الرومان للرقيق في مختلف النشاطات الاقتصادية والاجتماعية والادارية جعل من روما وولاياتها واستخدام الرومان للرقيق في مختلف النشاطات الاقتصادية والاجتماعية والادارية جعل من روما تبدو دولة نموذجية للرق [46]، وهذا لا يعني النهي الضكني لما كان بحوزة القرطاجيين وربما الامراء (الليبيين) من قبل من رقيق آل أمرهم الى الرومان بحكم الانتصار، لكن حروب هؤلاء المتواصلة لاخضاع القبائل المتمردة كانت مصدرا هاما للرق، فأسرى الحرب كانوا يتحولون الى حالة استرقاق بمجرد القبض عليهم.

وتذكر المصادر الأدبية الافريقية ان سيدة افريقية واحدة أهدت ابناءها 400 عبدا مرة واحدة (وهي زوجة ابوليوس المدعوة ايميليا بودنتيلا Eamilia Pudentilla)[47]، وان سيدة أخرى تدعى ميلانيا Melania من سوق اهراس Thagaste قد اعتقت اعدادا هائلة من عبيدها متأثرة بالورع المسيحي بعدما ترهبت، وكانت تستخدمهم في ميادين مختلفة منها الزراعة والحرف المختلفة كصناعة الحلي[48].

واذا كان مصدر عبيد الأرض والأعمال العضلية من المغاربة أنفسهم، فيما يبدو، فان عبيد المنازل بالحواضر الكبرى على الخصوص، كان معظمهم من خارج المغرب، وان نسبة عالية منهم 40 ٪ من بلاد الاغريق أو الشرق. وكانت الأعمال المسندة الى هذا النوع من الرقيق رفيعة تتطلب مستوى حضاريا لائقا وثقافة معتبرة كالمعرفة بشؤون تسيير الأعمال والحسابات[49] واتقان الكتابة فضلا عن الالمام الكافي بمعارف العصر وأساليب تربية الأطفال، وقد احتفظت النقوش الافريقية بما مكن من احصاء نسبة عبيد المنازل من ذوي الأصل الاغريقي مثلا، حيث أمكن التعرف على نسبة بلغت 50 ٪ منهم بمدينة كيرتا (قسنطينة)، وأكثر من ذلك بمدينة قيصرية (شرشال)[50]، وكان هذا الصنف من العبيد أرفع شأنا وأقرب الى حالة العتق من

عبيد الأرض الذين كانوا أكثر عددا وأدنى منزلة في نظر مجتمع ذلك العصر، وقد أكدت البحوث الأثرية ما ورد من اشارات في النصوص الأدبية من كون هذا الصنف من الرقيق كان من الأهالي، وقد استنتج غزيل Gsell ان انتفاضات السكان وتمردات القبائل المتواصلة ضد الرومان كانت تشكل موردا للعبيد عند الانتصار عليهم [51]، وأضاف بيكار G-Ch.Picard قائلا بأن اليد العاملة من العبيد كان يتحصل عليها من المنطقة نفسها (أي المغرب) وان الحملات على البدو كانت مناسبة لاسر العبيد [52].

أما الدلائل الأثرية فيكفي أن نذكر أن قائمة احتوت على خمسين اسما من العبيد جمعت من موقع أثري، كان ضيعة كبرى، ليس من بينهم سوى 11 اسما اغريقيا [53] كان أصحابها يمارسون أعمال الاشراف على الضيعة كالمحاسبة والتسيير.

ولدينا في هيكل عظمي مكتشف بموقع بولاريجيا Bulla Regia هو لعبدة دفنت مكبلة بالأصفاد ودفنت معها عبارة مشينة [54]، دليل مادي على حالة الاسترقاق والأعمال الدنيئة التي كان يجبر على أدائها هذا الصنف من البشر، كما خلدت لوحات الفسيفساء الافريقية مناظر العبيد المقيدين [55].

ابتداء من القرن الرابع أخذت حالة الرق في التغير ومجالها في الاتساع، اذ أجبرت قوانين الاصلاح الجبائي صغار المزارعين وكذلك الاجراء الأحرار على الانضواء تحت سلطة أصحاب العقارات الكبرى الذين كانوا مسؤولين أمام ادارة الجباية على أقساط الضريبة المفروضة على هذا الصنف من الفلاحين، وصدرت قوانين امبراطورية خلال القرن الرابع كرست حالة التبعية وألزمت الاتباع بالسيد الموكل عليهم فبرزت بذلك ظاهرة القننية في اخريات الامبراطورية الرومانية. وقد اعتبر بعض المؤرخين حالة القننية هذه مرحلة مكملة للعبودية القديمة وان الاقنان عوضوا عبيد الأرض السابقين بشكل قانوني [56].

الخلاصة

وحاصل القول أن التغيرات الاقتصادية والاجتماعية التي أحدثتها روما ببلاد المغرب على مكدى قرون عديدة، وخاصة أثناء القرنين الثاني والرابع الميلاديين

(الأول تناولت الاستصلاح الاقلمي وتوسيع الخريطة الزراعية والثانية أعادت تنظيم اقتصاد الامبراطورية وموارد الدولة منه) قد أثرت في الوضع السكاني العام وأعادت ترتيب عناصره الديمغرافية وشكلت الهرم الاجتماعي العام، بحيث يمكن القول بمحورة أصناف السكان الخاضعين لسلطة روما اجتماعيا على الوجه التالي :

1) فئة الأسياد Patrona ، وهم ملاك الأراضي وأصحاب الضياع الكبرى ذات الانتاج المتنوع والتي ابتلعت أراضي الفلاحين الصغار. وكانت هذه الفئة عمدة للسلطة وأساس هيكل الامبراطورية المتداعي في الأقاليم والمقاطعات.

2) الفئة المتوسطة من برجوازية المدن التي فقدت كثيرا من وزنها الاجتماعي والسياسي في العهد المبراطوري المتأخر.

3) فئة اليد العاملة بمختلف أصنافها من حرفيين بالحواضر وزراعيين بالأرياف وكانت تمثل أعلى نسبة عددية في هرم السكان، وتشكل القوى المنتجة الأولى في مجتمع افريقيا الرومانية، لكنها على الرغم من تباين الوضعية القانونية لأفرادها، اذ كان من بينهم الأحرار والعبيد والاقنان والأجانب، فان طبيعة التركيب الاجتماعي المتجانس جعل أفرادها في منزلة متماثلة الأمر الذي كان يشعرهم بالتساوي في الشقاء ويقارب بينهم في درجة الأحساس بالغبن الاجتماعي ويغرس في نفوسهم كراهية لمستغليهم.

ولعل ثورة القرن الرابع التي كانت حربا طبقية في مظهرها سياسية في جوهرها، قد عبرت عن تضامن طبقي بين ضحايا ذلك الوضع تعبيرا جليا عندما كان الثوار الريفيون (الذين نعتقهم النعوص القديمة بالدوارين) يقومون بتحرير العبيد ويمنعون في أعمال الانتقام من أسيادهم كانزالهم من فوق العربان واجبارهم على المشي أمامها بدل عبيدهم الذين يركبونهم تلك العربات، كما كانت أحياء الاقنان والأجانب المسماة بأحياء الأكواخ الحقيرة السوداء Casis nigris وقرى الفلاحين منطلقا لتلك الثورة، منها يتم تجنيد الرجال وفيها يجري تنظيم فرق القتال.

انتهى

(1) Gsel, Herodote: textes relatifs à l'histoire de l'Afrique du Nord, Alger-Paris, 1915, p. 191; J. Desanges; Catalogue des tribus africaines, 1962.
(2) CIL., VIII, 9663; CRAI., (1931), p. MEFR., (1956)., p. 110.
(3) CIL., VIII, 2615, G. Camps, «Les Bavares», R.A., (1955), pp. 241-288.
(4) Tacite, Annales, II, III, IV; Gsell, Atlas Arch. de l'Algérie, F. 18, N 519.
(5) Strabon, Géog., XVII 19, 9, J. Gascou, «Le cognomen Castulecus en Afrique romaine»; Mel. d'arch. et d'histoire, 2 (1970), pp. 729-736.
(6) CIL. VIII, 8836; M. Rachet, Rome et les Berberes, (1970), p. 256.
(7) Berthier, Chalier, Le sanctuaire punique d'el-Hofra, Constantine, 1955, pp. 167-175.

(8) لعل هذه الخاصية هي التي أوحت الى الجغرافي الروماني سولينوس ينعت هذا المسطح المائي بالبحر المتوسط بعد أن كان يدعى من طرف الجغرافيين الاغريق بالبحر الداخلي.
(9) لقد كون مرتزقة سيتيوس نموذجا رائدا لذلك النوع من المستعمرات بالشمال القسنطيني.

(10) Gascou, op. cit., p. 47; Lassere, Ubique populus, 1977, p. 294.
(11) Carcopino, «Les limes de Numidie et sa garde Syrienne...» Syria, 1925, pp. 149; G.-ch. Picard, Castillum dimmidi, 1947, pp. 83-125; Leschi, «Rome et les Nomades du Sahara centrale», IRS, 1942, pp. 7-8, Albertini, «Numerie Syrienne de Numidi», R.A., 1937, p. 30.
(12) Tertulien, D'après G.-Ch. Picard, La civilisation de l'Afrique romanie, 1959, p. 58.
(13) Ibid, Lassere, op. cit., p. 573.
(14) Courtois, Les vandales et l'Afrique, 1955, pp. 106-III.
(15) Beloch, Die bevolkecung der griechisch-romis, Welt. Lepzig, 1866, p. 507.
(16) Stein. Histoire du Bas-empire, I, 1959, pp. 2-3.
(17) Courtois, op. cit., p. 106.
(18) Picard, op. cit., p. 48.

(19) كانت أسوار مدينة قيصرية (شرشال) تضم 270 هكتارا، يعيش ضمنها ما قدر بمائة ألف نسمة. أنظر : S. Gsell, Cherchel, 1926, p. 22. كما كان ميناؤها يحتل المرتبة الثانية بعد ميناء قرطاجة بالشمال الافريقي، انظر : بوشناقي، المدن القديمة في الجزائر، 1978، ص. 24.
(20) هذا اذا اعتبرنا زواج الامبراطور نيرون من فتاة عن السن 11 نموذجا محتذى، أنظر :
— Tacite, Annales, XII, 58.
كما حدد قانون جوستينيان سن زواج الفتاة بـ 12 عاما، انظر :
— Codex Just, V, 4.
(21) Lessere, op. cit., p. 482.
(22) Ibid, p. 483.
(23) Ibid, p. 495.

(24) Seston, Euznat, «Un droit de la chancellerie roma ine: la tabula Banasitana», CRAI, 1971, pp. 171-1/2.

(25) لخص بيكار وضعية الناس المعاشية في قوله بأن 6/4 من سكان افريقيا كانوا يعيشون في فقر مدقع وان الغذاء وحده كان يمتص نصف دخل الأغنياء وثلثي دخل متوسطي الحال، وأكثر من 4/3 دخل بقية الناس.
(26) Riquet, «Christianisme et population», in population, 1949, p. 624.
(27) أشهر من ندد بتلك الظاهرة ترتوليانوس الذي وصف عملية الاجهاض بأنها من أعمال الوثنيين النافية للانسانية وانها انتزاع لروح أودعها الله في مخلوقات العالم، انظر :

— Tertuien, APOL., IX, 8.
(28) Leglay, Saturne africaine, I (1966), pp. 114-118, II PI XI-XII.
(29) Pomponius Mela, d'après Cat, Essai sur la prouince romaine de Mauritanie, césarienne, 1891, p. 58; Gascou, op. cit, p. 733.

(30) Gsell, «Esclavages ruraux dans l'Afrique romaines, Mel. Glotz (1932), p. 389; Lassere, op. cit., p. 504.
(31) Ibid, p. 511.
(32) (32) Ibid, p. 506.
(33) Saumgne, Le droit latin et les cités romaines sous l'empire, 1965, pp. 6--71.
(34) Lassere, op. cit., p. 625.

(35) هم بصفة عامة جميع المواطنين الرومان بالولد وليست لهم سوابق عدلية ويمتلكون ثروة قدرها بيكار بما فوق 83 ألف سسترس بقرطاجة و 20 ألف سسترس بكيرتا و6 آلاف بهيبون، أو المنتمون الى طبقة الفرسان والضباط والموظفين الساميين، أنظر :

(36) Piganiol, Histoire de Rome, 1977, p. 115.
(37) Ibid, p. 116.
(38) Gagé, Les classes sociales, 1964, p. 283; Stein, op. cit., (38) Gagé. Les classes sociales, 1964, p. 283; Stein, op. cit., p. 33.
(39) Stein, op. cit., p. 33.
(40) Chastagnol, L'album municipal de Timgad, 1978, p. 23.
(41) Ibid, p. 31. (42) Ibid, p. 23.

(43) كما هو مبين بسوق جميلة (كويكول) الذي كوسنينوس عام 229م ، وسمي باسمه، انظر :

-- Leschi, Djemila, 1949, p. 26.
(44) Fevrier, «Aux origines de l'occupation romaine dans les hautes plaines de sétif», Les Cahiers Tunisiennes, 1967 pp. 51--65; Leveau, «Paysanneries antique de pays bni Mennacers», BTH, 1972, pp. 660--670.
(45) Picard, op. cit., p. 154.

(46) زوبريتسكي ، عرض اقتصادي تاريخي، 1، موسكو (بلا تاريخ)، ص 146.

(47) Apoleius, apol., trad. Walette, 1924.
(48) Gsell, op. cit., pp. 405--431.
(49) Lassere, op. cit., pp. 430-431.
(50) Ibid, pp. 432-433.
(51) Gsell, op. cit., p. 398.
(52) Picard, op. cit., p. 150.
(53) Lassère, op. cit., pp. 341-342.
(54) Merlin, le temple d'Apollon à bulla regia, 1922, pp. 10-11 — fig. 374.
(55) Gsell, op. cit., pp. 406-412; Remandon, La crise de l'empire romaine, 1964, p. 180.
(56) Gsell op. cit., p. 403.
(57) Ibid, p. 407.

المجتمع الحرفي للشرق الجزائري
قبل العهد الروماني
من خلال نقوش منطقة الحفرة

مصطفى الألفي

تنقسم هذه الدراسة الى قسمين، قسم يعالج الوثائق المتعلقة بمنطقة الشرق الجزائري وعلاقتها بقرطاجة، وقسم يعالج علاقة روما بقرطاجة وبالشرق الجزائري، من القرن الثالث قبل الميلاد حتى القرن الأول قبل الميلاد.

فمدينة كيرتا (قسنطينة) تعتبر من أغنى مدن الجزائر التي أخرجت آثارا بونية. فلقد كانت عاصمة للمملكة النوميدية وملكها ماساناسا، وقصص المكتشفات الأثرية فيها عديدة، فيرجع تاريخ أولها الى سنة 1875م، وقد عثر على حوالي مائة وخمسين لوجة جنائزية كتبت بالبونية ودفنت في باطن الأرض على عمق 30ـ40 سم، وكان المكتشف هو (لازار كوستا)، ثم أرسلت هذه اللوحات الى متحف اللوفر بباريس حيث ظلت منسية في مخازنه ولم تنشر نشرا علميا الى أن قررت أخيرا وزارة الثقافة الفرنسية ان تعهد بنشرها لأحد المتخصصين في البونية وهو الاستاذ موريس سانيزر Sanyzer .

وثاني الاكتشافات تم في منطقة الحفرة في سنة 1950 وذلك بطريق الصدفة في أثناء حفر أساس مرآب لمصانع (رينو) في قسنطينة حيث عثر على مجموعة من اللوحات البونية يبلغ عددها سبعمائة لوحة نقلت الى متحف قسنطينة، وهناك عثر على معبد صغير تبلغ أبعاده 32/26 مترا، وقام بنشره كل من شارلييه وبرتييه في كتابهما